

إشكالية العمارة في الجزائر من أزمة إبداع إلى إبداع الأزمة

باشا محمد⁽¹⁾

انطلقت بأوروبا في القرن الثامن عشر تيارات فكرية متناقضة في نظرتها إلى أزمة المدينة الأوروبية، خصوصا بعد هجرة اليد العاملة من الأرياف إلى المدن، وتعرضها للأمراض نتيجة تراكمها داخل فضاءات هي من الأقيية أشبه منها بالمساكن، وخالية من أدنى شروط الحياة، وقد كان يعتقد إنجلز أن أزمة المدينة الأوروبية هي من تجليات الأزمة الشاملة للمجتمع الرأسمالي.

في خضم هذه التجاذبات الفكرية ظهرت فلسفتان مختلفتان في تعاطيها مع المدينة، وما يجب أن تكون عليه، الأولى تدعو إلى ضرورة العودة إلى مرحلة سابقة كانت تقيم فيها العمارة من جهة ما يمنحه الفن بشكل خاص، والثقافة بشكل عام، من إشباع للحاجات الروحية والنفسية للإنسان، ويتزعم هذه النظرة التيار الثقافي (Culturaliste)، ومن بين رواده وليام موريس وروستان، يبرز هذا التيار في إنجلترا على الخصوص أين ظهرت نتائج وخيمة للثورة الصناعية على الحياة المادية والثقافية، من انتشار للأمراض والتلوث.

انتقد كامبيليوسيت في مؤلفه "فن العمارة حسب مبادئه الفنية" الفقر الذي طبع الفضاءات العمرانية المشيدة في القرن التاسع عشر بشكل باهت، قائم على التشابه والنمذجة (Standardisation) للعمارات، وطرح في المقابل ضرورة تفعيل الفن في عملية البناء تماما مثلما كانت عليه الحال بالنسبة للفترة التي سبقت الثورة الصناعية، والمتميزة بالغنى والثراء، والانسجام والتنوع في إنتاج العمارة، وهو لا يطرح أفكاره انطلاقا من الشوق إلى عمارة القرون الوسطى، ولكن بعنوان تحريك الثقافة لأنها عنصر محوري في تلبية الحاجات الروحية والمعنوية لدى الإنسان، مع الحفاظ على الطبيعة التي لا قيمة للمعمار من دونها، والدعوة إلى أن تكون أبعاد المدينة معتدلة ومستوحاة من مدن القرون الوسطى كأكسفورد، روين، وفيس، أما تركز السكان فيجب ألا يكون في منطقة واحدة، بل موزعين في عدة نقاط، بينما يلعب الجانب الجمالي والفني الدور الذي تلعبه النظافة عند فورييه وريشاردسون، لأن الفن ينبع من الشعب ويوجه إلى الشعب وتبدعه أنامل الشعب⁽²⁾ ولا يمكن أن يتطور إلا من خلال الحرفة في مجال البناء، فكل عمارة ينبغي أن تكون مختلفة عن الأخرى لتعبر عن تميزها، فالإنسان لصيق بفنه، وبقيمه التي تحتزن رؤيته للحياة، للكون، وللمدينة، التي هي في ذهنه كلوحة فنية صاغتها أنامل رسام مبدع قبل أن تتجلى في شكل هندسة فنية فريدة ومتميزة. أما الفلسفة الثانية فقد اختارت أن تقيم أفكارها على عملية التقدم والتطور التكنولوجي المنبعث إشعاعه من الثورة الصناعية، وتراكم الرأسمال الصناعي، فالمدينة عند هذا التيار يجب ألا تخضع إلا لسلطان العلم والهندسة العقلانية، ولعل المدينة العمودية (La ville verticale) إشارة إلى البناء العمودي، أبرز مثال لهذه الفلسفة، وقد انتشرت نماذج البناء الموحد لهذا الفكر في جميع أنحاء أوروبا، وكانت أغلبية

(1) — أستاذ بقسم علم الاجتماع، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة مستغانم .

(2) - Françoise CHOAY : « L'urbanisme, Utopies et réalités », Ed du seuil, Paris, 1965, p 22-23.

الدول الأوروبية تستوحي مفردات هذه الفلسفة من دستور أثينا (charte d'Athènes) الذي اختزل الحركة داخل الفضاء السكني في أربعة وظائف: نوم، تنقل، أكل، تسلية. وكأن المسكن أصبح حلقة في صيرورة الإنتاج على الطريقة الماركسية، من جهة أنه بني فقط من أجل أن يعيد العامل فيه إنتاج قوة عمله ليس إلا.

لا يخضع هذا التيار للضغوطات التي تمارسها التقاليد، بل يفتح بحرية على العقل في إعداد نماذج البناء، فهو يشبه الإنسان عبر كل العصور بالنحل وهو يشيد خلايا هندسية، فالمعابد، المدن والمساكن.. وغيرها هي كذلك خلايا من النوع نفسه، غير أنها ذات أبعاد إنسانية. يفصل هذا التيار بدقة وعناية مناطق العمل عن مناطق السكن وهذه الأخيرة عن مناطق الترفيه وكل منطقة من هذه المناطق مقسمة هي الأخرى إلى مناطق صغيرة مصنفة ومرتبطة، فكل نشاط: تجاري، صناعي، إداري... يأخذ حيزا خاصا به، وهذا التقسيم للفضاء على هذا النحو يسمى بالتنطيق (zonage).⁽³⁾

بما أن حاجات الإنسان كما أشرنا إلى ذلك سابقا هي واحدة، على المسكن إذا أن يكون واحدا موحدا (Standardisé)، وموجودا في حي يضم عمارات ممتدة علوا وقادرة على استيعاب عدد كبير من السكان للمحافظة على أكبر قدر من الفضاء لإقامة حظائر طبيعية (مساحات خضراء)، وكل متأمل لهذا المعمار يدرك أنه شيد لتلبية الحاجة الملحة إلى المسكن بعد الدمار الذي شهدته المدن الأوروبية بعد الحروب العالمية، كما أنه بني على مقاس حاجة الصناعة إلى اليد العاملة بإنشاء تجمعات سكنية بمحاذاة المصانع الأوروبية.

لاحظ **لو كوربوزيه**⁽⁴⁾ بأن الهندسة المعمارية تعيش تراجعا إذا ما قورنت بالتحويلات التي جرت في القرن العشرين وهو عصر الآلة الذي يسيطر عليه الفن والإنتاج المكثف والاتصال، وكذلك الديمقراطية التي تركت فيه السيارة والطائرة بصماتها بشكل واضح، فقد كان يتابع بدقة وإمعان هذه التغيرات الحاصلة في المجتمع في مختلف الميادين، لكن المعمار في نظره بقي حبيس القرن التاسع عشر لأن النقاشات التي أثّرت بشأنه اقتصرَت فقط على الطرز المعمارية ومحاولة أفلمتها مع الأوضاع الجديدة للمجتمعات الغربية، هذا الركود على مستوى الأفكار المعمارية دفع **لو كوربوزيه** إلى التفكير في كيفية تطوير المعمار على غرار ما شهدته المجتمعات من تطورات في مختلف مناحي الحياة، ولعلّ شعوره بهذه الحاجة إلى ضرورة دفع الفكر المعماري إلى الأمام هو تعبير عن حسه المرهف وقدرته على استيعاب وتفكيك دقائق مفردات التغيير الحاصلة آنذاك، فقد جسّد حركة الوصل ما بين النماذج المعمارية السابقة وانطلاقة الفن المعماري على أسس الفكر الحديث فيما بعد.

على غرار والتر غروبيس (Walter Gropius) كان يعتبر أن الجمال أو الفن بالنسبة للمهندس هو مرادف للبساطة وضبط الأشكال، فنظرته هذه كانت تحمل رؤية جديدة قائمة ليس فقط على أساس مسألة

(3) - Olivier MONGIN : « la condition urbaine, la ville à l'heure de la mondialisation » Edition du seuil .Paris.2005, p112

(4) - Elizabeth Darling : "le Corbusier", Edition Dubayy.2000, p12.

النمط ولكن على أساس الوظيفة،⁽⁵⁾ وفعلا كان هذا التحول في الطرح بمثابة القاعدة التي قامت عليها مقارنة جديدة للمعمار، تأخذ بنظر الاعتبار علاقة النمط بالمعايير الأبدية التي تستند عليها الهندسة المعمارية، والمتمثلة في الحجم، المساحة، والمخطط (le volume, la surface et le plan)، بالإضافة إلى تبنيه التجرد في لغته المعمارية، ومحاولة إعادة تنظيم المعمار المعاصر انطلاقا من خلق نوع من التوازن في تساكين الإنسان، الآلة والطبيعة.

انعكاسات تطبيق النمط الوظيفي بالولايات المتحدة وأوروبا:

انطلقت الانتقادات الموجهة للتيار الوظيفي في بداية الأمر إلى المجسمات المادية المنجزة، لتمتد إلى طرق الإنجاز والدراسة، ثم لتستقر في نهاية المطاف على إعادة النظر في الإعمار كتخصص، وتعتبر الولايات المتحدة المتضرر الأول من المعمار الموحد لأنه يجسد عدم اهتمام بحاجيات الفرد الروحية والفكرية مقارنة مع الأحياء التقليدية⁽⁶⁾ التي تلعب فيها الشوارع دورا هاما في إثراء العلاقات الاجتماعية، وتنمية الحاجات الثقافية لدى الأفراد، و قد انتقلت هذه الانشغالات مع نهاية الستينيات إلى أوروبا متزامنة مع ظهور تخصصات مثل علم النفس وعلم الاجتماع الحضري، علم الإناسة والألسنيات، وكانت بعض هذه الانتقادات قد أطلقت العنان للحنين إلى التراث التاريخي وضرورة الاهتمام به وإعادة تأهيله، ويظهر ذلك في الكثير من القوانين المتحركة في هذا الاتجاه، مثل قوانين مولرو، وميثاق أمستردام عام 1975 الداعي إلى حماية الصورة التقليدية للمدينة.

لم يكن من المستطاع في فرنسا الحديث عن هدم هذه البنايات إلا مع نشوء الوكالة الوطنية لإعادة التأهيل الحضري (ANRU)، التي أسقطت الطابو ودعت إلى هدم المساكن المشتركة، في حين لم يكن تاريخ إنجازها يتجاوز الأربعين سنة، وفي أحيان أخرى لم يكن قد تم استرجاع الرأسمال المنفق فيها بعد، وفعلا تم هدم الكثير من العمارات عبر التراب الفرنسي، كما هي الحال في حي بالفونتان بمدينة تولوز سنة 2002-2003 وحي بالزراك بمدينة ليل سنة 2004-2005.

انطلقت الكثير من التقارير باتجاه وزارة السكن ووزارات أخرى مثل العمل والتضامن بفرنسا، منتقدة سنوات طويلة من تطبيق المعمار الوظيفي، في محاولة لتدارك الأمر والتفكير في أنماط معمارية بديلة.

لقد دعى جون بيارسيوري في تقرير له إلى السلطات المعنية ببذل المزيد من الجهود والإبداع في مجال الهندسة والتعمير، فمحيط المدن بحسب تعبيره لا يشكو من القلة في هذا المجال، لكن الملاحظ هو التراجع على مستوى التواصل والعلاقات والعيش المشترك، المنعدم تماما في فضاءات سكنية اختفت فيها الشوارع، فاختفى فيها التحضر (l'urbanité) والحميمية، فالعمارات موجودة الواحدة بالقرب من الأخرى من دون روح، على شكل أبنية صناعية في مناطق وظيفية، تماما مثل ما هي عليه السلع التجارية أما الممرات الموجودة بين العمارات فطبيعتها طرقية أكثر منها حضرية، فنحن ننتظر، يقول: "من المهندسين المعماريين عملا معماريا وليس معماراً موحداً علاقة له

(5) - Guisepe BONACORSI : « les théories urbaines et leur application » colloque international ORAN 1.2.3 décembre 1987 , p157.

(6) - Judith Carmel-ARTHEN : « le Bauhaus » ; Ed succès du livres. maxi livre .Dubayy.2004, p10-11.

بالهندسة المعمارية، لا ننتظر منهم إنجاز أشكال معمارية جميلة، وإن كان ذلك مرغوب، ولكن عليهم العمل داخل المجال الحضري، وعلى المجال الحضري l'urbain، داخل الحياة، ومن أجل حياة من يسكن منتجاتهم، وليس في تخفيض عدد الطوابق، ليتحول الامتداد العمودي إلى امتداد أفقي (pavillon)، فنحن نعرف جيدا أننا نعيش بشكل جيد في بنايات بحجم الإنسان، حيث توجد الشوارع والحدائق في أمكنة مهيأة، باختصار حيث يوجد التحضر (l'urbanité)،⁽⁷⁾ ثم يشير في مكان آخر من تقريره إلى صعوبة تسيير الأحياء أو التجمعات السكانية بسبب تعقد الشكل القانوني للقاطنين بهذه العمارات، فهناك أصحاب الملكية المشتركة، المستأجرين، وهناك مستأجرين عن مالكين في الاشتراك، فعدم اهتمام هذه الفئات وغياب المسير يسرع من تدهور الحضيرة العقارية ويجعل المتابعة أكثر صعوبة، أما ميشال غو فيتحرك في نفس السياق منتقدا هذه التجربة قائلا: "إن البنايات الجديدة تتحقق في الأغلب حول المدن في شكل متقطع، وفي العديد من البلديات، بدون رؤيا تأخذ بنظر الاعتبار مسألة انشاء مباني تاريخية، أبنية عمومية مرجعية، متاحف، مكاتب... وغيرها".

ثم يُضيف: "ليس من السهل تصحيح هذه اللوحة الغائمة بلمسات تجميلية" فهذا النمط من البناء تبني سريعا الاتجاه الحداثي الذي خرج قويا بعد الحرب العالمية الثانية، فالوظيفية مخطط مفتوح: خطوط مستقيمة، إنجاز ثقيل وموحد تحوّل إلى علامة إنتاج للمساكن ذات الإيجار المعتدل HLM.

"هذا البناء الصناعي للمساكن هو هدف في حد ذاته، بغض النظر إلى الضغوطات والنتائج الاقتصادية، فبعد أربعين سنة نأتي الآن لنقيّم كيف أن التغيير كلف ثمنا باهظا، فالتعمير هذا هو تعمير ميثاق آتينا مع أنه لا أحد يذكر ذلك، لقد تكررت هذه المبادئ بشكل دقيق من قبل المسؤولين السياسيين، فهذه الصحراء من الصخور - إشارة إلى العمارات التي هجرتها الفئات الاجتماعية ذات الدخل المرتفع- تحوّلت إلى أحياء صعبة انطلاقا من سنة 1974. فعندما يكون لنا مسكن لائق فإننا نعيش أقل في الخارج أو في الحانة، فنحن عندما نتكلم عن هذه التجمعات السكنية فهي على حد تعبير ميشال راقون، ملابس ضيقة عند الإبطين، أما مساكن المدن القديمة فهي ألبسة نوم واسعة"،⁽⁸⁾ فجنون الحداثية تخطى مراحل من دون أن يمرّ بها في إنتاج المدن، فالتجمعات السكنية هذه غير قابلة للتجزئة والتقسيم، الأمر الذي يعقّد عملية ترميمها وإعادة تأهيلها، فإرث ثلاثين سنة تكوّن من فائض في الخرسانة، وقصور في الأفكار والثقافة الحضرية، والملايين من المساكن المتدهورة، وكل عناصر الآلة المنتجة للسكن الوظيفي: الدولة، الإدارة، الصناعة، المخططون، المهنيون والمهندسون، كانت تعتقد أنها أجابت عن السؤال المتعلق بالقضاء على السكن القصديري، لكن مع النصف الثاني من الخمسينيات ظهرت أشكال حضرية: عمارات سكنية تمتد طولا وارتفاعا، متجمعة بعضها بالقرب من البعض الآخر، ليست متصلة بالمدينة، بل تبدو وكأنها مدينة قائمة بذاتها، لكنها لا تشبه على ما استقرت العادة على تسميته

(7) - Jean Pierre sueur : « demain la ville »; rapport présenté au ministère de l'emploi et de la solidarité, Tome 1 Ed : la documentation ,Paris.1998, p97.

(8) - Philippe VIGNAUD : « la ville ou le chaos ».Ed non lieu 2008, p 7-8.

بالمدينة،⁽⁹⁾ ولغرابة هندستها سميت بالتجمعات السكنية"، وليستر فليفيديو فكرة محورية في كتابه "مدينة أم فوضى": كانت المسألة المطروحة آنذاك تتعلق ببناء أكبر عدد من المساكن فجاء الجواب مناسباً، لكن السؤال المتعلق بالمدينة فقد أهمل تماماً، فلم يعد هناك وُجود لسارتر، أولبارث وأولباشلار، لذلك لم يعد هناك وجود للمعمار، فالسؤال المتعلق بالمدينة ظل اقتصادياً بحثاً، ولم يكن هناك مجال لتدخل الفلسفة، ولا حتى لعلماء الاجتماع، فقد كان لوزارة التعمير الحرية المطلقة في تطبيق نظريات وافدة من دستور آئينا.

لقد ساعد على تجسيد هذا النموذج المعماري بفرنسا فكر مختزل وأداة قادرة على الإنتاج المكثف والسريع، يسرت له العقبات سلطة غولية (نسبة لديغول)، فالإنتاج الموحد والمكثف سمح بتخفيض تكاليف الإنتاج، وكان متوقفاً أن تنجح هذه المساكن الجماعية، غير أن محيط المدينة تحول إلى مكان مجهول بدون عنوان، هناك فقط أرقام تدل عليه، لقد أنشئت هذه البنايات بعيداً عن القوانين والممارسات الثقافية للمدن.

يعود تأثير العالم العربي والإسلامي إلى النفوذ الغربي في هذه المنطقة، فقد كانت الأبنية العمومية والشركات والقصور أول ما انتقل إلى هذه البلاد ثم تبعها المساكن وغيرها، وكان من بين الأنماط التي تأثرت بها الدولة العثمانية النمط المعماري الباروكي في القرن التاسع عشر، أما النمط المعماري الكولونيالي فقد انتشر في مدن البحر الأبيض المتوسط.

انتشرت هذه الأنماط المعمارية بعنوان الانفتاح على الغرب الذي شجع عليه السلطان محمود الثاني، ومحمد علي والحديوي إسماعيل، باسم الحداثة التي كانت لها ناشئة من القطيعة مع التراث، هذه الفكرة وصلت متأخرة إلى البلاد العربية و ذلك بعد الحرب العالمية الثانية، بعد أن انتشرت في ألمانيا و فرنسا و كل أنحاء أوروبا.

عرفت الجزائر بما أنها كانت تحت الاستعمار الفرنسي هذا النوع من المعمار قبل انطلاق مشروع قسنطينة بسنوات قليلة، ليتبني بشكل رسمي سنة 1958، ثم بعد الاستقلال سنة 1966، غير أن هذا المعمار وجد في الجزائر بيئة مختلفة عن البيئة التي نشأ بداخلها في أوروبا، وإن كانت أزمة السكن الحادة هي القاسم المشترك الوحيد الذي ظهر في أعقابها هذا النمط المعماري.

لقد كانت بنية المجتمع الجزائري قائمة على الأرض الفلاحية ومستقرة في تناغم على مدى المئات من السنين. بين مدينتها على بساطة معمارها، وريفها على بدائية وسائله المستخدمة في الإنتاج الزراعي. إلا أن التعاون والتفاف أفراد القبيلة أو العرش على الأرض كان مصدر قوة بالنسبة للمجتمع الجزائري، قبل أن يتعرض أفرادها إلى الاجتثاث من أراضيهم بسبب عمليات الاستملاك المختلفة التي مارسها الاستعمار وشرذ أصحابها الأصليين إلى محيط المدن في ظروف معيشية قاسية.⁽¹⁰⁾

(9) - J. Michel roux : des villes sans politique. Ed Nantes 2006.p24.

(10) - Pierre BOURDIEU, Abdelmalek SAYAD : « le déracinement », Ed de minuit, Paris. 1964, p21.

لقد كانت المدن في الجزائر غير نظامية، وهندسية بيوتهاموريسكية، فالسكان لم يلتفتوا إلى الجانب الفني في تشييد أبنيتهم، لكنهم يعترفون بانسجام المدن والمعمار مع المناخ المتوسطي وتقاليد السكان.⁽¹¹⁾

تأسف شارل دي بوا (أحد المهتمين بالمعمار) عام 1865 كيف أن القائمين على المدينة لم يسعوا إلى إيجاد طريقة توافقية بين طريقة البناء الأوربية وبين من سبقوهم - إشارة إلى السكان المحليين - فقد أكد أن مخطط المدينة الأوربية لا يستطيع استيعاب أبعاد هذه الخطوط الطويلة من البيوت البيضاء بدون نوافذ، الملتوية والموضوعة بعضها في مقابل البعض الآخر، تاركة في بعض الأحيان مسافة لا تتعدى بضعة سنتيمترات، وكأنها تستند إلى بعضها لتلتقط الشمس والضوء، فاسحة على عتباتها منافذ للهواء العليل... كانت هذه الشوارع كثيرة عند قدوم الفرنسيين وملائمة بشكل جميل ومتناغم مع مناخ البلاد.

لقد كانت الشوارع ملتوية اجتنابا للشمس من أن تمتد على طول الشارع،⁽¹²⁾ وذلك لتوفير البرودة والهواء من حين لآخر بين جنبات الشوارع، التي كانت كثيرا ما تنتهي بردوب (impasses) حفاظا على الفضاء السكني، فقد كان لها دورا اجتماعيا وأخلاقيا في حماية خصوصية الفئات الاجتماعية الساكنة بها.

دعا العقيد شارون مدير الهندسة في الجزائر سنة 1844 إلى دراسة الأبنية المشيدة من قبل العرب، والإبقاء فقط على الشروط التي تفرضها طبيعة الأرض والمناخ، من دون الالتفات إلى الجانب القيمي والديني، لكن في الواقع حتى هذه الشروط لم تؤخذ بنظر الاعتبار، فالشوارع التي صممت كانت أصغر من تلك المصممة بفرنسا، وبالرغم من ضغط السكان إلا أن الشوارع المستقيمة شيدت في مكان الشوارع الضيقة والملتوية،⁽¹³⁾ الجالبة للبرودة والهواء مع التكثيف من غرس الأشجار لتلطيف الجو الحار، ومن أجل إثبات السلطة الكولونيالية كانت تنتقى الأمكنة العالية لبناء الكنائس حتى تكون في نقاط أعلى من المساجد.

لقد كانت التحولات في ظل الظروف الكولونيالية عنيفة، فعند احتلال الجزائر واجه الاستعمار احتمال بناء نموذج غربي للمدينة في مكان المدينة القائمة التي كانت التهيئة بها شبيهة بزمان القرون الوسطى، وبالرغم من التساؤلات التي أثارت آنذاك حول الهوية المتوسطية للمعمار، إلا أن العجلة التي جاء بها مشروع قسنطينة نسف محاولة مساءلة التقاليد المحلية لإنتاج مدينة حديثة، فتم استنساخ نموذج المجموعات السكنية (les grands ensembles)⁽¹⁴⁾، وكما أن الاستعمار فوّت على المجتمع الجزائري إمكانية التواصل مع فترة ما قبل الاستعمار، لم تنتبه السلطة بعد الاستقلال أيضا إلى أن العمارة لا تلبي فقط الحاجة المادية، وأن هناك حاجات اجتماعية وثقافية للمجتمع الجزائري يلبيها المعمار، من خلال إطلاق جدلية الإبداع كما يسميها الجادرجي في أوساط المهندسين

(11) - Pierre BOURDIEU : « Sociologie de l'Algérie », Ed presses universitaires de France juin 2010, p10.

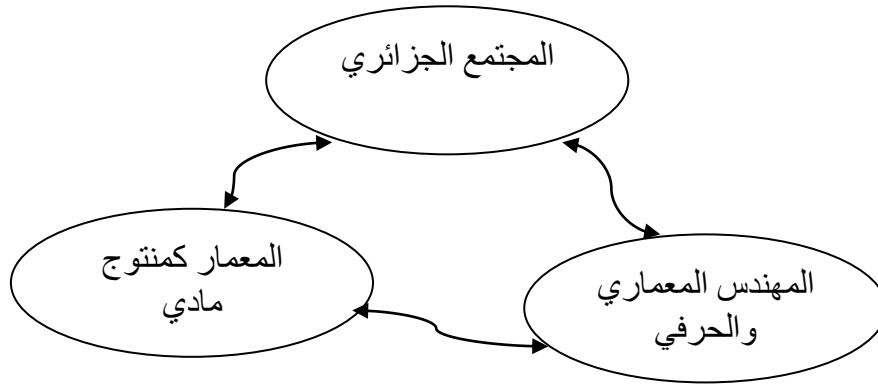
(12) - محمد جاسم محمد العاني: "دراسات تطبيقية لبعض جوانب التخطيط الحضري والإقليمي". دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان 2009، ص 207-

(13) - Alexis de Tocqueville ; sur l'Algérie. Ed Flammarion, Paris, 2003, p 49.

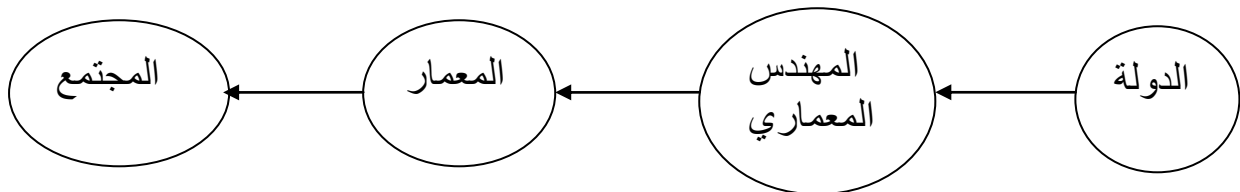
Cf :Kebir. M Ammi:« Abd El Kader » Ed Presses de la renaissance. Paris 2004.

(14) - Jean. Jacques DELUZ : « L'urbanisme et l'architecture d'Alger ». office des publications Alger, 2008, p7.

المعماريين باعتبارهم العنصر المستبطن لخصوصية المجتمع الجزائري، بعنوان أن المعمار كمنتوج مادي يتفاعل مع هذه الخصوصية فيغذيها ويتغذى منها في تفاعل مستمر يتجسد في مختلف الدورات الإنتاجية لأشكال البناء فيحصل ما يدعوه الجادرجي بالابتمال،⁽¹⁵⁾ وهي حالة الرضا التي يحققها المعمار حينما يتماهى ويتناغم مع الممارسة داخل الفضاء السكني، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا من خلال تحريك عناصر الدورة الإنتاجية في أجواء من التلاقح والتفاعل:



وليس من خلال توجيه الأوامر واستنساخ أنماط معمارية لغرض تلبية الحاجة الملحة للطلب المتزايد على السكن، وإقصاء الحاجة الاجتماعية والثقافية للمجتمع واعتبار المسكن سلعة تخضع لمزاج العرض والطلب أي للقيمة التبادلية (la valeur d'échange) على حد التعبير الماركسي، لتغيب فكرة الإبداع فيصاب المعماري بالعقم، والمعمار بالاغتراب، والمجتمع بالاستلاب، ليكون كل واحد من هذه العناصر منفصل عن الآخر، فينتهي المطاف بهذه العناصر إلى التحرك في دوائر منفصلة عن بعضها البعض، وبدلاً من أن تتحرك كل الدوائر في شكل متفاعل، تترنح كل دائرة تحت تأثير الدائرة الأقوى في شكل منفعل كما في الشكل أدناه.



تعتبر العمارة منتوج ثقافي واجتماعي أكثر منه منتوج مادي، وظيفي وشكلي، فالعمارة تمنح الشعور بالاستمرارية عبر الزمن من خلال تفاعل رموز الماضي، وانفتاح عناصر الحاضر عليها، فالعمارة بهذا العنوان يجب أن تنتج من أجل المجتمع، على النحو الذي يعبر عن رؤيته وثقافته وتطلّعاته، حتى تتمكن العمارة من رواية تاريخ المجتمع، ألميشرا بن خلدون بأن طبائع العمران تتحدث عن أحوال الماضين من الأمم وعن عاداتهم وتقاليدهم، لا

(15) - رفعت الجادرجي: "في سببية وجدلية العمارة"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان 2006، ص 23-24.

لشيء، إلا لأن الفضاء يختزن الزمن على حدّ تعبير مارتن هيدغر، بكل ما يحمله هذا الزمن من رموز وعادات، لكن إذا كان المعمار غير متصل بالمجتمع فإن ذلك سيخلّف حركة فصل بين المعمار من جهة، والفئات من جهة أخرى، نلاحظ تجلياتها في مقاومة ثقافية لهذه الأشكال المعمارية، كما هو الأمر بالنسبة للحضائر السكنية في أغلب مدننا الجزائرية، فإذا كانت التعابير المعمارية مختلفة، فهذا لأن الثقافات مختلفة، فالعمارة تعبير عن الثقافة، وتتساكن معها الهوية. فالمعمار يجب أن يرضي القيم الاجتماعية، فهو يسمح لنا باختزان الموروث الثقافي وتحديد عير الانفتاح على الثقافات المختلفة، مع التأكيد على ضرورة الابتعاد عن فكر معماري لا يلي الحاجة الاجتماعية والثقافية، ولا يراعي الخصوصية المحلية والطبوغرافية للمكان في تصاميمه المعمارية، ويؤكد ذلك روبرت فونتوري (Robert venturi): "إن نظرتنا إلى العمارة يجب أن تبدأ من الخلف، من التاريخ والتقاليد حتى نسير بها إلى الأمام". (16)

لكل تصميم لغة معمارية خاصة به، تختزن ملامح ثقافية في تقاسيمه الهندسية المتدخلة في صياغة فضاءاته السكنية، ولغة المعمار الوظيفي لا يفهمها الساكن الجزائري بثقافته، لأن الظروف التاريخية والاجتماعية لم تسمح له بتفكيك مفرداته ومحاولة التخاطب مع أشكاله المعمارية، في محاولة لإنشاء نوع من التواصل معها، كما أن المسير لم يدرك أبعادها أيضا، فظل مرتبكا أمام كثرة النصوص القانونية، والتعليمات المتدفقة من إدارة لا تفقه التنافر بين المعمار الوظيفي في تصميمه، وممارسة الساكن في حركتها، بحثا عن سبل إعادة صياغة الفضاء السكني (السكن الاجتماعي) وخلق أو إعادة بعث التواصل معه من جديد وتعتبر توسعة غرف الاستقبال، أو غرف النوم أو المطابخ على حساب الشرفات، ضم مدارج السلالم كامتداد للمساكن، وتغيير وضعية دورات المياه وغيرها، إلا صيغة حوارية تواصلية بين أشكال تملك الساكن للفضاء والوضعية التعبيرية الفيزيائية للمعمار، وتنطلق صعوبة تطبيق القوانين المنظمة للحضائر السكنية الاجتماعية من حالات الاسترخاء السلي للأجهزة المسيرة في إشاعة ثقافة الملكية المشتركة في أوساط الجزائريين، الذين اقتحموا المساكن الشاغرة التي غادرها المستوطنون بعد الاستقلال، فالملكية المشتركة تعني مسؤولية اجتماعية مشتركة تقع على عاتق الشاغلين للعمارات، سواء كانوا مستأجرين أو مالكين في الاشتراك فيما يتعلق بالأجزاء المشتركة (parties communes): كالأقبية، المصاعد مغاسل الثياب، أقفاص السلالم، الخزائن، مساطح الدرج، مداخل العمارات، مفارغ المخلفات المنزلية وغيرها، بالإضافة إلى نظام العمارة الذي يجسد هذه المسؤولية المشتركة بين سكان البنايات، فالالتباس الحاصل بين الملكية المشتركة على أنها ملكية فردية، فضلا عن القصور في الالتزام بمتطلبات هذا المعمار الوظيفي من خلال تسيير تفرضه طبيعة هذا المعمار، سمح لمختلف الممارسات بأن تنتشر وتستشري داخل وفي واجهات البنايات في كل المدن الجزائرية.

(16) -أنظر: محمود الداودي: "في الدلالات الميتافيزيقية للرموز الثقافية -عالم الفكر- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت، العدد 3، مارس

لقد تسبب تدهور الفضاء الحضري في تدهور العلاقات الاجتماعية، وعدم قدرتها على الانسجام معه أو الانتساب إليه، فتكونت حالة من العدائية أفرزت العديد من المظاهر اللاحضرية، كانتشار الأوساخ في المحيط وداخل العمارات، وفي فضاءات مهمة، ميتة، كان من المفترض أن تكون مساحات خضراء تساهم في تزيين المدن والرفع من مستوى التحضر، وتقوية العلاقات الاجتماعية، ومعنى أن الفئات الاجتماعية لم تستطع الانتساب إلى هذه الفضاءات، معناه أنها لم تتمكن من تعليم الفضاء الفيزيقي اجتماعيا، أو تحوله إلى فضاء اجتماعي (الفضاء الذي نعرف فيه)، فبالرغم من مرور الزمن إلا أن الساكن لم يستطع قراءة التعليم الفيزيقي على أنها تعليم اجتماعية، فالنماذج التي بنتها الدولة للفئات الاجتماعية أفرزت مقاومة لأنها لم تتمكن من تحقيق الابتغال والرضا لدى السكان، فالسكن الوظيفي لا يمنح الخيار للساكن على الاتصال، بل يفرض عليه التفرد والانزغال، ليس فقط بينه وبين الجيران، بل حتى مع أفراد عائلته، بحكم الهندسة المتميزة بطابعها العازل للغرف التي لا تفتح على البهو أو الساحة أو الحوش أو الشارع الذي يغذي بشكل عجيب علاقات الجيرة، لأن العلاقة بين الشارع أو الحارة والقاطنين فيه علاقة ترابطية، فالشارع في المدينة الإسلامية مرتبط بالعقار ومالكه، على عكس ما هي عليه الحال في المدينة المعاصرة، حيث يعد الشارع من مسؤولية السلطات العمومية، وهو مع ذلك منعدم في أحيائنا ذات المعمار الوظيفي القائمة كما أسلفنا على فكرة التنطيق (Zonage)، حيث لا يوجد إلا أرقام تسمى بها هذه الأحياء (حي 1500 مسكن، حي 200 مسكن على سبيل المثال). وبالتالي فالعمارات لا تستطيع الانفتاح على بعضها لأنها تفتقد للشارع أو الزقاق الذي في مكنته أن يحقق صلة التراحم التي من شأنها تفعيل علاقات الجيرة وبعث الحياة من جديد للمجتمعية (Socialité)، لكن ما نشاهده من طبيعة الحراك داخل هذه الأحياء يجعلنا نتوقع في مستقبل الأيام أن تتحوّل هذه الأحياء ذات الطابع السكني الاجتماعي إلى خزانات للفقر، واختزان الفقر في مثل هذه الفضاءات سيحلب أخوات الفقر، أي الكثير من الظواهر الاجتماعية السلبية وسيحول هذه الأمكنة إلى غيتوهات* تمارس نوع من الحتمية الفضائية أو المقاطعية، كما سيمكّننا أيضا من مشاهدة غيتوهات للأثرياء مهئية اجتماعيا.

إن معنى أن يكون المسكن مفروضا هو معناه الإحساس بالتواجد في علب، فالسكنى عند الساكن واقعة أنثروبولوجية، لكن بدون معايير، بدون أشكال محددة مسبقا، فهي تشبه الممارسات الاجتماعية المتنوعة في الزمن والفضاء، فإذا كان المسكن يرتبط بمفهوم السيطرة (domination)، فإن السكنى⁽¹⁷⁾ (l'habiter) يرتبط بمفهوم التملك (L'appropriation)،⁽¹⁸⁾ الفضاء الاجتماعي الذي يفتح فيه الإنسان على الممكن والمخيال، وليس من خلال ما يرسمه المكان من حدود.

(17) - Henri Lefebvre : « La production de l'espace » .Paris ,EdAnthropos 2000, p84.

*- Cf : Michel Pinçon. Charlot : « les ghettos du gotha, au cœur de la grande bourgeoisie » Edition du seuil, Paris. septembre 2007.

(18) - Henri Lefebvre : « la révolution urbaine »,Paris, Ed Gallimard 1970, p111- Hugues .LETHIERRY : « sauve qui peut la ville »études lefebvriennes. Ed L'harmattan, paris 2011, p84-85.

إن تغيير الفئات الاجتماعية المستأجرة أو المالكة في الاشتراك للفضاءات السكنية من خلال مختلف التملكات داخل و على واجهات العمارات هو ما يدعونا إلى تبني الفكرة القائلة بأن الفضاء منتوج اجتماعي وليس فضاء نهائيا كما ينجزه المهندسون، فالفضاء الوظيفي لم يغيّر من الممارسة لتتعلّم لغته فتتكيف معه، بل العكس هو الذي حصل، فالممارسة هي التي غيرت الفضاء لتعلّم لغتها كي يتكيف معها. أما لو كان الفضاء السكني يعبر عن التفاعل بين عناصر الدورة الانتاجية للمعمار والمتمثلة في المعماري، المجتمع والمعمار من خلال إطلاق حرية الابداع لدى المعماري باعتباره العنصر الحامل لتطلعات المجتمع فينتج معمارا يحقق الرضا لدى الفئات الاجتماعية، أمكننا الحديث حينها بأن الفضاء يمكن أن ينتج ما يسمى التحضر (L'urbanité).

Références bibliographiques :

1-Ouvrages :

- Alexis de Tocqueville ; sur l'Algérie. Ed Flammarion, Paris,2003.
- Arnaud LIONEL : Réinventer la ville. Presses universitaires de Rennes 2008.
- Cyprien AVENEL ; « sociologie des quartiers sensibles » ; Ed Armand Colin Paris 2007.
- Elizabeth Darling : «le Corbusier», Edition Dubayy.2000.
- Françoise CHOAY : « L'urbanisme , Utopies et réalités »,Ed du seuil ,Paris,1965.
- Françoise PAUL LEVY: « La ville en croix » .collection alors 1984.
- Henri Lefebvre : « la révolution urbaine »,Paris,EdGallimard 1970
- Henri LEFEBVRE : « le droit à la ville » .nouvelle édition Anthropos 2009
- Henri Lefebvre : « La production de l'espace » .Paris ,EdAnthropos 2000.
- Hugues LETHIERRY : « sauve qui peut la ville »étudeslefebvriennes. Ed L'harmattan, Paris 2011.
- J. Michel ROUX : « des villes sans politiques »,Gulf Stream. Ed Nantes 2006 .
- Jean. Jacques DELUZ : « L'urbanisme et l'architecture d'Alger ». office des publications Alger,2008.
- Jean Pierre SUEUR : « demain la ville »; rapport présenté au ministère de l'emploi et de la solidarité, Tome 1 Ed : la documentation,Paris.1998.
- Jean Paul LACAZE: « la ville et l'urbanisme », Ed Flammarion .Paris.1995.
- Judith Carmel-ARTHEN : « le Bauhaus »; Ed succès du livres. maxi livre .Dubayy.2004.
- Kebir. M Ammi:« Abd El Kader » Ed Presses de la renaissance. Paris 2004.
- Koch Wilfried, « comment reconnaître les styles en architecture de la grèce antique au siècle » Ed Solar.Paris.1997.
- LarbiICHBOUDENE: « ALGER histoire d'une capitale » Ed CASBAH 2006.
- Michel DECERTAU : « l'invention du Quotidien ; l'art de faire» Folio Gallimard .Paris.1990.
- Michel KOKOREFF :« sociologie des émeutes ». Ed Payot février .Paris.2008.
- Michel Pinçon. Charlot : « les ghettos du gotha, au cœur de la grande bourgeoisie » Edition du seuil, Paris.septembre 2007.
- N.A BENMAATI : « L'habitat du tiers monde ; le cas de l'Algérie ». Alger,SNED 1982.
- Olivier MONGIN : « la condition urbaine, la ville à l'heure de la mondialisation » Edition du seuil .Paris.2005 .
- Philippe VIGNAUD : « la ville ou le chaos » .Ed non lieu 2008
- Pierre BOURDIEU : « Sociologie de l'Algérie », Ed presses universitaires de France juin 2010.
- Pierre BOURDIEU, Abdelmalek SAYAD : « le déracinement », Ed de minuit,Paris. 1964.
- Renaud LECROIX :« villes et mondialisation : le défi majeur du XXIesiècle » Ed ellipses Paris. 2005.
- Sid Boubekeur : « l'habitat en Algérie, stratégies d'acteurs et logiques industrielles ». Office de publications universitaires. Alger.1986.
- Thierry OBLET : « gouverner la ville »Ed PUF .Paris .2005.
- Guiseppe BONACORSI :« les théories urbaines et leur application » colloque international ORAN 1.2.3 décembre 1987.

- Thierry PAQUOT : « Terre urbaine, cinq défis pour le devenir urbain de la planète » Ed la découverte Paris 2006.
- Thierry PAQUOT :« Homo urbanus »Ed FELIN,Paris.1990.

المراجع:

1. الكتب:

- رفعت الجادرجي: "في سببية و جدلية العمارة"، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت لبنان 2006 .

2. مجلات:

- أنظر: بودماغ حمزة: "العمارة ومنهجية الإبداع" - المستقبل العربي العدد 263 مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان. جانفي 2001.
- أنظر: حازم النجدي: "الفكر المعماري والتوجهات المعاصرة" - المستقبل العربي العدد 263 ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، جانفي 2001.
- رفعة الجادرجي: "إشكالية العمارة، والتنظير البنيوي" - عالم الفكر، العدد الثاني، أكتوبر-ديسمبر 1998 الكويت.
- أنظر: عفيف البهنسي: "مابعد الحداثة والتراث في العمارة العربية الإسلامية" - عالم الفكر، العدد الثاني، أكتوبر-ديسمبر 1998 الكويت.
- أنظر: مشاري النعيم: "تحولات الهوية العمرانية" - المستقبل العربي العدد 263 ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، جانفي 2001.